وليس بعد مكة مكان أفضل من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأعمال فيها مضاعفة، رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم: صلاةٌ فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلاّ المسجد الحرام... وكذلك قيل: إن فضل الأعمال بالمدينة كفضل الصلاة، كل عمل بألف عمل. وبعد ذلك الأرض المقدسة فإن فضل الصلاة فيها بخمسمائة صلاة، وكل عمل يضاعف بخمسمائة مثله... وروينا عن عطاء عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم: صلاةٌ فى مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة.. وصلاةٌ فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، وصلاةٌ فى المسجد الأقصى بألف صلاة، ثم يستوى الأرض بعد ذلك فلا يتبقى مندوب إليه مقصود لفضل دلّ الشرع عليه، كما جاء فى الخبر: لا تُشَدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى، وبعد ذلك فأى موضع صلُح فيه قلبك، وسلِم لك دينك، واستقام فيه حالك فهو أفضل المواضع لك.

وقد جاء فى الخبر: البلاد بلاد الله تعالى، والخلْق عباده ، فأى موضع رأيتَ فيه رفيقا فأقمْ واحمد الله تعالى... وفى الخبر المشهور: من حضر له فى شىء فلزمه، ومن جُعلت معيشته فى شىء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه... وقال نعيم: رأيت الثورى قد جعل جرابه على كتفه وأخذ قُلّته بيده، فقلت إلى أين يا أبا عبد الله، فقال إلى بلد أملأ فيه جرابى بدرهم.. وفى حكاية أخرى: بلغنى أن قريةً فيها رُخْص فأخرج إليها. فقلت وتفعل هذا يا أبا عبد الله؟ فقال نعم، إذا سمعتَ فى بلد برخص فاقصده، فإنه أسلَم لدينك وأقل لهمّك... وكان يقول: هذا زمان سوء لايؤمَن فيه على الخاملين فكيف بالمشهورين! هذا زمان تَنَقُّل الرجل، ينتقل من قرية إلى قرية يَفِرُّ بدينه من الفتَن... وقد كان الفقراء والمريدون يقصدون الأمصار للقاء العلماء والصالحين للنظر إليهم والتبرّك والتأدّب بهم. وكان العلماء ينتقلون فى البلاد ليعلّموا ويرّدوا الخلق إلى الله تعالى ويعرّفوا الطريق إليه، فإذا فُقد العاملون وعَدِم المريدون فالزم موضعاً ترى فيه أدنى سلامة دين، وأقرب صلاح قلب، وأيسر نفس، ولا تنزعج إلى غيره فإنك لا تأمن أن تقع فى شر منه، وتطلب المكان الأول فلا تقدر عليه، والله غالبٌ على أمره، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلى العظيم.

الفصل الرابع والثلاثون

فى تفضيل الإسلام والإيمان وشرح عقود معاملة القلب من مذاهب أهل الجماعة

قال الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود وقال سبحانه وتعالى: ولكن

يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان. وقال تعالى : **ولاجناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم**. وقال جل ثناؤه : **ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** ... فعمدُ القلوب وكسبُها هو عقودها وأعمالها وعقود القلب التى هى السنّة المجتمع عليها، نقلها الخلف عن السلف ولم يختلف فيها اثنان من المؤمنين، فيها **ست عشرة** خصلة - ثمان واجبات فى الدنيا، وثمان واقعات فى الآخرة - فأما اللاتى هن فى الدنيا: * **أن يعتقد العبد أنّ الإيمان قول وعمل**، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل ؛ * **وأنّ القرآن كلام الله عز وجلّ غير مخلوق**، وعلمه القديم صفة من صفاته ، هو متكلم به بذاته. وفى **الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم** : ما تقرّب العبد إلى الله عز وجل بفضل من شىء خرج منه، وهو كلامه ... وروينا عن **ابن عباس** أن **علّيا** رضى الله تعالى عنهما دعا عند قتال **صفين** : يا كهيعص ، أعوذ بك من الذنوب التى توجب النقمة، وأعوذ بك من الذنوب التى تغير النعم، وأعوذ بك من الذنوب التى تهتك الحُرُم، وأعوذ بك من الذنوب التى تحبس غيْث السماء، وأعوذ بك من الذنوب التى تديل الأعداء، انصرنا على من ظلمنا... قال **الضحّاك بن مزاحم** فكان **علىّ** رضى الله عنه يقدّم هذه بين يدّى كل شديدة. وفيما روينا عن **النبى صلى الله عليه وسلم** من قوله أعوذ بكلمات الله وأسمائه كلها، كما قال أعوذ بعزة الله وقدرته، دليلٌ أن الكلام والأسماء صفات. وعن **علىّ** رضى الله تعالى عنه حين حكّم الحكمين فنقم عليه الخوارج ذلك، فقالوا حكّم فى دين الله من المخلوقين، فقال والله ما حكّمت مخلوقا، ما حكمّت إلاّ القرآن. وقال **أبو بكر الصديق** رضى الله تعالى عنه حين سمع قرآن **مسيلمة الكذاب** الذى افتعله وتخرّصه يضاهى به كلام الله تعالى والله ماخرج هذا من ال ولا من تقىّ، قال **أبو عبيدة** يعنى ما خرج من الله تعالى، قال وفيه دليل أنّ القرآن غير مخلوق ، وأنه خرج من الله تعالى، تكلم به. قال ومن هذا قوله تعالى : **لا يرقبون فى مؤمن إلاّ ولاذمة**، معناه الله عز وجل لا يرقبونه . وقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** بمعنى ذلك فى قوله فضْلُ كلام الله عز وجل على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلْقه .. وذلك أنه خرج منه. وقرأت فى مصحف **ابن مسعود** ، قال ياموسى قد فضّلتك برسالاتى وبكلامى على الناس، وهذا لا يجوز فيه إلا التكلم بالذات، مع قوله سبحانه وتعالى : **وكلّم الله موسى تكليما**. قال أهل اللغة المصدر إذا أدخل فى الفعل فهو للمواجهة والوصف لا للأمر بالفعل ولا على المجاز. * **ثم تسليم أخبار الصفات** فيما ثبتت به الروايات وصحّ

النقل، ولايتأول ذلك ولا يُشَبِّه بالقياس والعقل، ولكن يعتقد إثبات الأسماء والصفات بمعانيها وحقائقها لله تعالى ، وينفى التشبيه والتكييف عنها، إذ لا كفؤ للموصوف فيُشبَّه به، ولا مِثْل له فيجنَّس منه، ولانُشَبِّه ونصِف ، ولا نُمثِّل ونعرِّف ونُكيِّف. وفى رد أخبار الصفات بطلان شرائع الإسلام منْ قِبلَ أنّ الناقلين إلينا ذلك هم ناقلو شرائع الدين وأحكام الإيمان، فإنْ كانوا عُدولا فيما نقلوه من الشريعة فالعَدل مقبول القول فى كل ما نقله، وإنْ كانوا كذبوا فيما نقلوا من أخبار الصفات فالكذّاب مردود القول فى كل ماجاء به، والكذب على الله كفر، فكيف تُقبل شهادة كافر؟ وإذ جاز أن يجترؤا على الله عز وجل بأنْ يزيدوا فى صفاته مالم يسمعوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم إلى أنْ يكذبوا على الرسول فيما كان من الأحكام أولى، ففى ذلك إبطال الشريعة وتكفير النَقَلة من الصحابة والتابعين بإحسان، فلذلك كفّر أصحاب الحديث من نفَى أخبار الصفات .* **ويعتقد تفضيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته رضى الله عنهم** ورضوا عنه كافة، ويسكت عما شجر بينهم، وينشر محاسنهم وفضائلهم، لتأتلف القلوب بذلك ونسلُم لكل واحد منهم مافعله، لأنهم أوفر وأعلى عقولا منا، فقد عمل كل واحد بعلمه ومنتهى عقله فيما أدّى إليه اجتهاده، وإنْ كان بعضهم أعلم من بعض، كما أن بعضهم أفضل من بعض، إلاّ أن علومنا وعقولنا تضعف وتنقص عن علم أدناهم علما، كمافضلوا علينا بالسوابق سبقا.* **وأنْ يقدّم مَن قدّم الله ورسوله** وأجمع المسلمون الذين تولّى الله إجماعهم على الهداية، وضمن لرسوله الله صلى الله عليه وسلم تفضيلا وتشريفا لهم أن لا يجتمعوا على ضلالة . وقد قال **علّى** لمّا قيل له ألاَ تستخلف علينا، فقال لا أستخلف عليكم بل أكِلُكُم إلى الله عز وجل، فإنْ يُرد بكم خيراً جمعكم بعد نبيّكم على خَيْركم. قال **إبراهيم النخعى** فلمّا سلّم **الحسن بن علىّ** رضى الله تعالى عنهما الأمر إلى **معاوية** سُميت سَنَةُ الجماعة، وقال له رجل من **الشيعة** يامُذِّل المؤمنين، فقال بل أنا مُعِزّ المؤمنين، سمعت أبى عليه السلام يقول لا تكرهوا إمارة معاوية فإنه سيلى هذا الأمر بعدى، وإن فقدتموه رأيتم السيوف تبدر عن كواهلها كأنها الحنظل. فليعتقد بقلبه من رضى الصحابة بإمامته وأجمعوا على خلافته. واتفق الأئمة من **أهل الشورى** على تقدمته على حديث **ابن عمر** فى التفضيل، قال : كنا نقول على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم **أبو بكر ثم عمر ثم عثمان**، فيبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينكر... وعلى حديث **سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم** قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون مُلْكا... **فهؤلاء الأربعة** خلفاء النبوة ، وهم أئمة الأئمة من **العشرة**، وعيون أهل الهجرة والنُصرة، وخيار الخيار من الأصحاب. كما روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** : إن الله عز وجل اختار أصحابى على العالمين، واختار من أصحابى **أربعة** فجعلهم خير أصحابى، وفى كل أصحابى خير، واختار أمتى على الأمم، واختار من أمتى **أربعة قرون**، فكل قرن **سبعون سنة**... فإنّا نحن قوم متّبعون نقفو الأثر، غير مبتدعين بالرأى والمعقول نرد به الخبر، إذ لا مدخل **للقياس والرأى** فى التفضيل، كما لا مدخل لهما فى الصفات وأصول العبادات، وإنما يؤخذ التفضيل توقيفا وتسليما، ومن طريق **الإجماع والاتباع** خشية الشذوذ والابتداع، لقول **رسول الله صلى الله عليه وسلم** : بسنتى وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى، عُضّوا عليها بالنواجذ ومن شذّ ففى النار ... وقال تعالى فى تصديق ذلك : **ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم** ... وإنما جاء الترتيب فى التفضيل والخلافة مخالفاً للقياس والمعقول ، توكيداً للنبوة ، وتأييداً للرسالة، لئلا تلتبس النبوة بالمُلك ، ولا ينحو النبى صلى الله عليه وسلم فى الخلافة نحو الأُكاسرة والأقاصرة فى المملكة، وكما كانت النبوة مخالفة للمُلك جاءت الخلافة على غير سيرة الملوك من استخلاف أبنائهم وأهل بيتهم. ولو كان للمعقول والقياس مدخل فى التفضيل لكان أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم **الحسن** ابنه، لأن فيه البنوة، **والعباس** عمه إذ فيه الأبوة، وقد أجمعوا على خلاف ذلك. وبمعنى هذا من إخراج الخلْق من المألوف ورفع سكونهم عن المعهود أنّ **أبا قحافة وأبا سفيان** ماتا مؤمنين، وأنّ أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمه ماتا كافرْين، أجمع أهل النقل والتواريخ على ذلك. وقال **أبو بكر الصديق** رضى الله تعالى عنه لمّا أسلم أبوه بين يدّى رسول الله عام فتحُ مكة : والله يارسول الله لإسلام **أبى طالب** كان أحب إلّى لو أسلم من إسلام أبى ليقرّ الله به عينك - فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأيضا فلما سبق فى علم الله تعالى أن يجعل هؤلاء **الأربعة** خلفاء النبوة بما قدّر الله من أعمارهم، فلم يكن يتم ذلك إلا بترتيبهم على مارُتبّوا فى الخلافة، فكان آخرهم استخلافا هو آخرهم موتاً، فدبّر خلافتهم على ما عَلِمَ من آجالهم ووفىّ لهم بما وعدهم من استخلافهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم من خلائف أنبيائه السوالف، ومكّن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وبدّلهم أمنا بعد خوفهم، كما قال الصادق فيما عَهَد ومَن أوفى بعهده من الله، فذلك تأويل قوله عز وجل : **وَعَد الله الذين آمنوا وعملوا**

الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم - الآية.* وأنْ يعتقد أن الإمامة فى قريش خاصة دون سائر العرب كافة إلى يوم القيامة. وأن لا يخرج على الأئمة بالسيف ويصبر على جورهم إن كان منهم، ويشكر على المعروف والعدل ، ويطيع إذا أمر بالتقوى والبرّ حتى تاتيه يدٌ خاطئة أو منّية قاضية، كذلك السُنة. قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله تعالى :هذه الأمة ثلاث وسبعون فرقة، اثنتان وسبعون هالكة، كلهم يبغض السلطان ، والناجية هذه الواحدة التى مع السلطان... وسئل أى الناس خير؟ فقال : السلطان. قيل : كنا نرى أن شر الناس السلطان ؟ فقال : مهلاً ، إن لله تعالى فى كل يوم نظرتين، نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ودمائهم ، ونظرة إلى سلامة أفكارهم، فيطلّع فى صحيفته فيغفر له ذنوبه... وقال أبو محمد: الخليفة إذا كان غير صالح فهو من الأبدال، وإذا كان صالحا فهو القطب الذى تدور عليه الدنيا... قوله من الأبدال يعنى أبدال المَلِك... كما حدّثنا عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال : أبدال الدنيا سبعة، على مقاديرهم يكون الناس فى كل زمان من العبّاد والعلماء والتجار والخليفة والوزير وأمير الجيش وصاحب الشرطة والقاضى وشهوده. وروينا فى الخبر : عدل ساعة من إمام عادل خيرٌ من عبادة ستين سنة. ويقال إن الإمام العادل يوضع فى ميزانه جميع أعمال رعيته. وكان عمرو بن العاص يقول إمامٌ غشوم خير من فتنة تدوم. وقال النبى صلى الله عليه وسلم : يكون عليكم أمراء يفسدون وما يُصلح الله تعالى بهم أكثر، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإنْ أساؤا فعليهم الوزر وعليكم الصبر. وفى الخبر الآخر: يليكم أمراء يقولون مالم يعرفون ، ويفعلون ما ينكرون، وفى لفظ يفعلون مالم يؤمروا. قلنا أفلا نقاتلهم، قال : لا ، ما صلّوا. وفى الحديث الآخر : ما أقاموا الصلاة... وكان سهل رحمه الله تعالى يقول من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق. ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل... وكان يقول الخشيبات السودالمعلقة على أبوابهم أنفع للمسلمين من سبعين قاضيا يقضون فى المسجد... وقد كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقول إذا كان السلطان صالحا فهو خير من صالحى الأمة، وإذا كان فاسقا فصالحو الأمة خير منه. وهذا قول عدل.* ولا يكفّر أحداً من أهل القِبْلة بذنب وإنْ عظُم، ولا ينزله جنة ولا ناراً بل يرجو له ويخاف عليه، وأنّ من مات مُصرّاً على الكبائر عن غير توبة منها فى مشيئة الله تعالى ، إنْ أثبت وعيده عليه كان عدلا، وإنْ عفا عنه وسمح له بحقه كان ذلك منه فضلا. ولا نحكم ولا نقطع على الله تعالى

بشيء ، ولا نوجب لنا عليه شيأً ، إنما نحن بين عدله وفضله ، وبمشيئته واختياره،إن حققّ علينا وعيده فنحن أهل ذلك، وإنْ غفر لنا فهو أهل التقوى وأهل المغفرة. كيف وقد روينا عن **رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم** أنه قال : من وعده اللّه تعالى على عمل ثوابا فهو منجزه له، ومن أوعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار... والحديث الآخر أنّ **النبى صلّى اللّه عليه وسلّم** سئل عن قوله تعالى **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها**، فقال : جزاؤه جهنم إنْ جازاه.. ففى كل قضاء اللّه تعالى حكمة بالغة وعدل وحكم صادق وحق.* **وأنْ يُصدّق بجميع أقدار اللّه تعالى خيرها وشرها**، أنها من اللّه تعالى، سابقة فى علمه، جارية فى خلقه بحُكمه، وأنهم لاحول لهم عن معصيته إلاّ بعصمته، ولا قوّة لهم على طاعته إلاّ برحمته، وأنهم لا يطيقون ما حمّلهم إلاّ به، ولا يستطيعون لأنفسهم نفعا ولا ضُراً إلاّ بمشيئته. ونؤمن بقدرة اللّه وآياته فى مُلكه وغيب ملكوته ، مما ذكر فى الأخبار من كراماته لأوليائه وإجاباته لإحبابه ، وإظهار القدرة للصدّيقين والصالحين ، مزيداً لإيمانهم ، وتثبتاً ليقينهم ، وتكرمةً وتشريفاً لهم، وأنه ليس فى ذلك إبطال لنبوّة الأنبياء ، ولا إدحاض حججهم من قِبَل أنّ هؤلاء غير مثبتين ولا مخالفين للأنبياء ولا ادّعوا ماظهر لهم بحوْلهم وقوّتهم، ولا أظهروا دعوة إلى أنفسهم ، ولا تظاهراً به ، ولا اجتلاءً بالدنيا ، ولا طلباً للرياسة على أهلها، وإنما هو شيء كشفه اللّه تعالى لهم من سر ملكوته كيف شاء، وأظهرهم عليه من غيب قُدرته أين شاء كما شاء، تخصيصاً لهم وتعريفاً، وهم للأنبياء متبّعون، وعلى آثارهم مقتفون، ولسُنّتهم مقتدون، فآتاهم اللّه تعالى ذلك ببركة الأنبياء وبحُسن اتبّاعهم لهم، ولأنهم إخوانهم أبدالاً لا أشكالاً لهم، وعنهم أمثالا. وقد تواترت الأخبار عن الصحابة والتابعين الأخيار بما ذكرناه فغنينا بالتواتر عن التناظر.

وأما **الثمانى** الواقعات فى الآخرة :* **فأنْ يعتقد العبد مساءلة منكر ونكير**، يُقعِدان العبد فى قبره سوياً ذا روُح وجسد، فيسألانه عن التوحيد وعن الرسالة، وهى آخر فتنة تُعرَض على المؤمن، وهما فتّانا القبر. كذلك روينا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وهو معنى قول اللّه عز وجل **يثبّت اللّه الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة**، قيل عند مساءلة منكر ونكير، **ويضل اللّه الظالمين ويفعل اللّه مايشاء**.* **وعذاب القبر حق وحكمة وعدل** على الجسم والروح والنفس، يشتركون فى ذلك حسب اشتراكهم فى المعصية، وإنْ كان نعيماً كان ذلك على الجسم والروح والنفس، يشتركون فى النعيم كما

اشتركوا فى الطاعة.وهذا من أحكام الآخرة يكون بمجارى القُدرة، ليس على ترتيب المعقول ولا عُرف العقول، يوصل الله العذاب والنعيم إلى الأرواح والأجسام وهى متفرقة فيتصل ذلك بهما كأنهما متفقان، وليس فى القدرة مسافة ولا ترتيب ولا بعد ولا توقيت * **ويؤمن بالميزان** ذى الكفتين واللسان أنه حق وعدل وحكمة وفضل ، كما جاء وصفه من أن طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى والصنج يومئذ مثاقيل الذَرّ والخَرْدل بحقيقة العدل، **وقد خاب من حمل ظلما**، فتكون الحسنات فى صورة تُطرح فى كفة النور فيثقل بها الميزان برحمة الله تعالى، وتكون السيات فى صورة سيئة تطرح فى كفة الظُلمة ، فيخف بها الميزان بعدل الله تعالى. ***ويعتقد أن الصراط حق** على ماجاء وصفه فى الآثار كدقة الشعرة وحدّ السيف، وهو طريق الفريقين إلى الجنة أو النار، يثبّت عليه أقدام المؤمنين بقدرة اللهّ عز وجل ، فيحملهم إلى الجنة بفضل الله تعالى ، وتزلّ عنه أقدام المنافقين فتهوى بهم فى النار بحكم الله عز وجل ***ويؤمن بوقوع الحساب** وتفاوت الخلْق فيه، فمنهم من يحاسب حساباً يسيرا، ومنهم من يدخل النار بغير حساب وهم الكفرون. وكان إمامنا **أبو محمد** رحمه الله تعالى يقول : يُسأل الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ويُسأل الكفار عن تكذيب المرسلين، ويُسأل المبتدعة عن السنّة، ويسأل المسلمون عن الأعمال .* **ويؤمن بالنظر إلى الله جلّ جلاله عياناً بالأبصارْ** كفاحاً، مواجهةً تكشف الحُجُب والأستار بقدرة الله ومشيئته ونوره ورحمته كيف شاء ، وهو معنى قول الله تعالى **للذين أحسنوا الحُسنى وزيادة**، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى الله تبارك وتعالى. وكذلك فسّره رسول الله صلى الله عليه وسلم.* **ويعتقد إخراج الموّحدين من النار بعد الانتقام** ، حتى لا يبقى فى جهنم موّحد ، بفضل الله ، ثم بشفاعة الشافعين من النبيين والصدّقين، وأنّ لكل مؤمن شفاعة بإذن الله فيشفع النبيّون والصدّيقون والعلماء والشهداء وسائر المؤمنين ، كل واحد وُسْعَ جاهه وقَدْر منزلته، أجمعت الرواة بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إثبات الشفاعة وفى إخراج الموحدين من النار، وهم الجهنميون من أهل الطبقة العليا من النار، وهو معنى قول الله تعالى : **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين**، قال أهل التفسير ذلك عند إخراج الموحدين من النار ، ويبقى الباقى لرحمة أرحم الراحمين، فيخرج من النار بمشيئته وسعة رحمته وفضل فضله من لم يشفع لهم الشافعون ، ولم يقدم فى الشفاعة لهم المرسلون. هكذا روينا معناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .... فهذه عقود السُنّة الهادية ، وطريقة الأمة

الراضية . وقد أجمع السلف من المؤمنين على ماذكرناه من قبَل أنه لم ينُقل عن أحد منهم خلافه ، ولا رُوى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ضده، بل قد رُوى فى كل ماذكرناه أخبار توجب إيجابه، ومعان تشهد لإثباته، وتولّى اللّه تعالى إجماعهم على سنّة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، كما تولى إظهار دينه على الدين كله.

وروينا عن النبى صلىّ اللّه عليه وسلم إن اللّه عز وجل ضمن لى، وفى لفظ آخر أعطانى، أن لا تجتمع أمتى على ضلالة، فإذا رأيتم خلافا فكونوا مع السواد الأعظم. والسواد الأعظم يعبّر به عن الكثرة، فالمختلفون متفقون على أن السواد الأعظم ما عليه العامة من المسلمين والكافة من العموم، وأنّ المبتدعة والمخالفة لما ذكرناه إنما هم فرق وشراذم قليلون ، وشيّع وأحزاب متفرقون، لأن كل مبتدعة منهم فرقة، وكل شرذمة منهم مختلفة، وليس السواد الأعظم والجم الغفير الدهماء إلاّ **أهل السنة والجماعة**، وهم السواد والعامة، ولذلك كان **عمر بن عبد العزيز** وغيره من الصالحين يقولون ديننا دين العجائز وصبيان المكاتب ودين الأعراب، أى هو القَوَى السليم العام، وفسّر ذلك **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** فى الحديث الآخر فقال : مَن كان على ماأنتم عليه اليوم... فأجمعت الأمة على أن ما أحدثت الفرق المختلفة لم تكن عليه الصحابة ولا تكلموا فيه ولا نُقِلَ عنهم، وأنهم كانوا على ماذكرناه آنفا لأنه لم يُرْوَ عن أحد منهم خلافه،بل قد نقل عنهم وفاقه فى القرن الأول والثانى، ثم حدث ماذكرناه من الخلاف فى بعض القرن الثالث وفى القرن الرابع. **فللّه** الحمد ربّ السموات وربّ الأرض ربّ العالمين على حُسن توفيقه وجميل هدايته، وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا اللّه، فنعمة اللّه تعالى علينا بالسُنّة كنعمته علينا بالإسلام، إذ نعمته علينا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كنعمته علينا بمعرفته، لاقتران طاعته بطاعته، ولحاجة الكتاب العزيز إلى تفسير سُنته. وقد روينا فى حديث **عمر** عن **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** : الشيطان مع الواحد ، وهو من اثنين أبعد. ذئبُ أحدكم كذئب الشاة يتبع الشاذة والقاصية، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم **الجماعة**، ومن شذّ ففى النار. وروينا عن **أبى غالب** عن **أبى أمامة** أنه نظر إلى رءوس **الحرورية** جيء بها من البصرة فنُصِبت على الخشب بدمشق، قال شر قتلى تحت ظل السماء ، ثم قال كلاب النار، ثم قرأ **فأمّا الذين فى قلوبهم زيْغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة**، ثم قرأ يوم **تبيض وجوه وتسوّد وجوه، فأمّا الذين اسوّدت وجوهم أكفرتم بعد إيمانكم** ، ويشير بإصبعه إليهم، ثم بكى ، فقلت ياأبا أمامة تقول فيهم

ماتقول ثم تبكى، فقال قاتل الله إبليس ماصنع بهؤلاء الناس ياأباغالب، إنهم كانوا على ديننا فأبكى مما هم لاقون، هؤلاء بأرضك كثير فأعيذك بالله منهم ثلاث مرات، فقلت آمين يا أبا امامة ، أشيءٌ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو شيءٌ تقوله من قِبَل رأيك، قال لقد سمعت **رسول الله صلى الله عليه وسلم** غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع يقول: تفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، تزيد أمتى عليها فرقة، كلها فى النار إلاّ السواد الأعظم، والجماعة خير من الفُرقة، والطاعة خير من المعصية... **هؤلاء الخوارج**، وهم **الحرورية** الذين خرجوا على أمير المؤمنين **علّى بن أبى طالب** رضى الله تعالى عنه، وهم **أوّل قرن** نبغ من المبتدعة، **وأوّل بدعة** ابتُدعت فى الإسلام، وكانوا قرّاء، المصاحف فى أعناقهم، والسَجّادات كركب المِعْزَى فى جباهم، فأنكروا عليه تحكيم الحكمَيْن، وسألوه أنْ يَنْقُض حكمه فيرجع عنه، وقالوا لاحكم إلا لله ، وأنكروا أمر السلطان، ورأو الخروج على الإمام ، وكفرّوا عثمان ، وصوّبوا قتل غوغاء المصريين له، وطالبوا علياً عليه السلام أنْ يوافقهم على رأيهم ويتابعهم على أهوائهم على أنْ يقاتلوا معه المسلمين إنْ رجع عن تحكيم الحَكَمَيْن، وكفرّوا أهل الكبائر بالمعاصى ، فرأى علىٌ ما أراه الله تعالى ، وبماعهد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قتل المارقين فقتلهم، فهؤلاء فى النار، وقاتلوهم – علّى وأصحابه – خيرُ أهل الأرض فى الجنة. وكان رئيسهم فى الضلال وفى القتال **عبد الله بن الكوّا الأعْور** ، وكان علىٌ يبغضه ويسبّه قبل أن يظهر منه ماظهر، فخرج عليه عبد الله بن الكوّا فى ستة آلاف، فأرسل علىٌ عليه السلام **عبد الله بن عباس** إليهم يناظرهم ويحاجّهم فسبّوه وبطشوا به، وجرأهم عليه بن الكوّا هذا، فقام خطيباً فيهم فقال أتعرّفونى بهذا، أنا أعرفكموه، هذا من القوم الذين قال الله فيهم **ما ضربوه لك إلاّ جدلاً، بل هم قوم خصمون**، ثم تراجع بعضهم إلى ابن عباس فسأله، فكشف له عن الحق واستتاب منهم ألفين، وقاتل علىٌ كرّم الله وجهه أربعة آلاف، فهذه **أوّل فرقة** مرقت من الدين واتبّعت غير سبيل المؤمنين، ثم افترقت **الفرقة الثانية** بالمدائن فرأوا دين **الإرجاء** وأن الإيمان قول وعمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص، وكتبوا بذلك إلى أمير الشام، فَهَمّ بقتالهم ثم شغل عنهم بقتال الروم ، ثم افترقت **الفرقة الثالثة** بالبصرة **وهم القدرية**، إمامهم **معبد الجهنى** وتابعه **عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزّال** وأصحابهم، ثم خرجت **الفرقة الرابعة** من الكوفة وهم **الرافضة** ، سمّوا بذلك لمّا رفضوا **زيد بن على بن الحسين** حين خرج يقاتل **هشاما**،

فقالوا له تبرّأ من أبى بكر وعمر رضى اللّه تعالى عنهما، قال هما جداى ، إماما عدل، لا أتبرأ منهما، فرفضوه. ثم افترقت كل **فرقة ثمانى عشرة فرقة، فتّمت اثنتان وسبعون** فرقة، وكلها نبع بأرض **العراق** ومنه طلع قرن الشيطان. وظهرت الفتن نعوذ باللّه منها، ماظهر منها ومابطن. وقد روينا عن **ابن عباس** عن **النبى صلى اللّه عليه وسلم** أن للّه عز وجل ثلاثة أملاك، ملَك على ظهر بيت اللّه تعالى، وملك على مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وملَك على ظهر بيت المقدس، ينادون فى كل يوم، يقول الملَك الذى على ظهر بيت اللّه تعالى من ضيّع فرائض اللّه خرج من أمان اللّه، ويقول الملَك الذى على ظهر مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مَن خالف سنّة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم تنله شفاعة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ويقول الملك الذى على ظهر بيت المقدس من أكل حراما ، يقبل منه صَرْف ولا عدْل.

شرح معاملة القلب من العلم الظاهر وذكر مبانى الإسلام وأركان الإيمان

قال اللّه تعالى : **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا**، وقال عز وجل : **واذكروا نعمة اللّه عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا**، وقال تعالى : **ومالكم لا تؤمنون باللّه والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إنْ كنتم مؤمنين**. فمبانى الإسلام **خمسة**: أوّلها شهادة أنْ لا إله إلاّ اللّه وحده ، وأن محمدا صلّى اللّه عليه وسلم عبده ورسوله، وهما كواحدة لاتصال إحداهما بالأخرى فى الوجوب والحكم؛ وإقام الصلاة الخمس، وهن كواحدة منها لتعلّق كل واحدة بصاحبتها؛ وإيتاء الزكاة، وهى كالصلاة لاقترانها بها والاشتراط بها ؛ وصوم رمضان؛ وحج البيت وهما كشىء واحد من الفرض. فهذه **الخمس** كواحدة منهن فى إيجاب العقد واعتقاد الوجوب ، وإنْ اختلف الحُكم فى سقوط فعل بعضها بشرط. وروينا عن **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** أنه قال : بنى الإسلام على **خمس**: شهادة أن لا إله إلاّ اللّه، وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة الخمس، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت .

وأركان الإيمان سبعة: الإيمان بأسماء اللّه وصفاته، والإيمان بكتب اللّهّ تعالى وأنبيائه والإيمان بالملائكة والشياطين، والإيمان بالجنّة والنار وأنهما قد خلقتا قبل آدم صلى اللّه عليه

وسلم ، والإيمان بالبعث بعد الموت ، والإيمان بجميع أقدار الله خيرها وشرها، حلوْها ومرّها، أنها من الله تعالى قضاء وقدراً أو مشيئةً وحكما، وأنّ ذلك عدلٌ منه وحكمة بالغة استأثر بعلم غيبها ومعنى حقائقها، لا يُسئل عما يفعل، ولا تُضرب له الأمثال بملزمات العقول وتمثيلات المعقول، تعالى عن ذلك علوا كبيرا. وقد شهد الله سبحانه وتعالى بالضلالة على من ضرب لعبده الأمثال، فقال تعالى جدُّه : **انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا**، فكيف بمن ضرب المَثَل للسيد الأجّل بعد نهيه عن ذلك وإخباره بعلم غيب ذلك، إذ يقول : **فلا تضربوا لله الأمثال إنّ الله يعلم وأنتم لا تعلمون** . والإيمان بما صحّ من حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وقبول جميعه، وافتراض طاعته وأمره على العباد، والتزام ذلك، إذ قد جعل الله تعالى طاعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من شرط الإيمان وقرنها بطاعته، فقال تعالى : **أطيعوا الله ورسوله إنْ كنتم مؤمنين**، واشترط للرحمة طاعة الرسول، كما اشترط لها تقواه، فقال : **وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون**، وحذّر من مخالفة أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، في الاستجابة له مقامه ، وجعله في المبالغة في الوصف والمدح بدلا عنه، فقال تعالى : **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أنْ تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**، كما قال سبحانه وتعالى : **ويحذركم الله نفسه**، وقال تعالى : **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**، لأنه قال : **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله**، وهذه أمدح آية في كتاب الله تعالى وأبلغ فضيلة فيه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، لأنه جعله في اللفظ بدلاً عنه، وفي الحكم مقامه، ولم يدخل بينه وبينه كاف التشبيه **كأنما**، ولا لام الملك فيقول لله تعالى، وليس هذا المقام من الربوبية لخلْقٍ غيْر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

ذكر اتصال الإيمان بالإسلام في المعنى والحكم . وافتراقهما في التفصيل والاسم .وأنّ كل مؤمن مسلم . وتحقيق القول بالعمل . وإبطال مذهب الجهمية والكرامية والحرورية. وبيان مذهب أهل السنة والجماعة . وفقنا الله تعالى لذلك

قال قائلون: **الإيمان هو الإسلام**، وهذا قد أذهب التفاوت والمقامات، وهذا يَقرُب من مذهب **المرجئة** . وقال آخرون **إن الإسلام غير الإيمان**، وهؤلاء قد أدخلوا التضاد والتغاير، وهذا قريب من قول **الأباضية**. فهذه مسئلة مشكلة تحتاج إلى شرح وتفصيل، فمثّل الإسلام

من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى فى المعنى والحكم، فشهادة الرسول غير شهادة التوحيد، فهما شيآن فى الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى، فهما كشىء واحد، لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصحّ إسلامه، ولا بد للمسلم من إيمان به يحق إيمانه ، من حيث اشترط الله سبحانه وتعالى للأعمال الصالحة الإيمان، واشترط للإيمان الأعمال الصالحة، فقال فى تحقيق ذلك : **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه**، وقال فى تحقيق الإيمان بالعمل : **ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى**. ومن كان ظاهره أعمال الإسلام لا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافق نفاقا يَنْقُلُ عن الملة. ومن كان عقدُه الإيمان بالغيب لا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفراً لا يثبت معه توحيد. ومن كان مؤمنا بالغيب مما أخبر به الرسول عن الله سبحانه، عاملا بما أمر به، فهو مؤمن مسلم، ولولا أنه كذلك لكان المؤمن يجوز أن لا يسمى مسلما، ولجاز أن لا يسمى كل مسلم مؤمنا بالله تعالى ورسله وكتبه.

ومثل الإيمان من الأعمال كمثل القلب من الجسم لا ينفك أحدهما من الآخر، فلا يكون ذو جسم حى لا قلب له، ولا ذو قلب لا جسم له، فهما سببان منفردان ، وفى المعنى والحكم متصلان. ومثلهما أيضا مثل حبة لها ظاهر وباطن وهى واحدة، لا يقال حبتان، لتقارب وصفيهما، فكذلك أعمال الإسلام من الإيمان، الإسلام هو ظاهر الإيمان، وهو أعمال الجوارح، والإيمان باطن الإسلام، وهو أعمال القلوب. روى **عن النبى صلى الله عليه وسلم**: الإسلام علانية والإيمان سرّ، وفى لفظ آخر والإيمان فى القلب،.. فالإسلام إعلام الإيمان، والإيمان عقود الإسلام، فلا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بعقد، ومثل ذلك مثل العلم الظاهر والباطن، أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وأعمال الجوارح، ومثله **قول رسول الله صلى الله عليه وسلم** : إنما الأعمال بالنية... أى لا عمل إلاّ بعقد وقصد، لأن قوله صلى الله عليه وسلم «إنما» تحقيق للشىء ونفى لما سواه، فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وأعمال القلوب من النيات، فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان، لا يصح الكلام إلا بهما ، لأن الشفتين ، تجمع الحروف، واللسان يظهر الكلام، وفى سقوط أحدهما بطلان الكلام، كذلك فى سقوط العمل ذهاب الإيمان، ولذلك عدّ الله تعالى فى نعمته على الإنسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان فى قوله تعالى «**ألم نجعل له عينين ولسانا**

وشفتين ، المعنى ألم نجعله ناظراً متكلماً ، فعبر عن الكلام باللسان والشفتين لأنهما مكان له ، وذِكره الشفتين لأن الكلام الذى جرت النعمة به لايتم إلا بهما .

ومثل الإيمان والإسلام أيضاً كفسطاط قائم فى الأرض له ظاهر متجاف وأطناب ، وله عمود فى باطنه ، فالفسطاط مثل الإسلام له أركان من أعمال العلانية والجوارح وهى الأطناب التى تمسك أرجاء الفسطاط ، والعمود الذى فى باطن الفسطاط مثله كالإيمان لاقوام للفسطاط إلا به ، فقد احتاج الفسطاط إليهما إذ لا إستقامة له ولا قوة إلا بهما ، وكذلك الإسلام من أعمال الجوارح ولا قوام له إلا بالإيمان ، والإيمان من أعمال القلوب لا نفع له إلا بالإسلام ، وهو صالح الاعمال ، وقد عبر الله تعالى عن الإيمان بالإسلام ، فلولا أنهما كشىء واحد ما عبر عن أحدهما بالآخر ، فقال سبحانه **فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ، ولم يكونا بيتين ، إنما هم أهل بيت واحد ، لوط وبناته ، وقال عز وجل فى مثله **إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ، فعطف بقوله إن كنتم مسلمين على قوله إن كنتم آمنتم ، فدلّ على أنهما اسمان بمعنى واحد ، وهذا كقوله تعالى فيما عبر عن الأيام بالليالى ، لأن اليوم مرتبط بالليلة ، وأنت تعلم أنهما شيئان ، فقال فى قصة واحدة **قال آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً** ، وقال أيضاً سبحانه **آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً** ، وأيضا فان الله تعالى قد جعل ضد الإسلام والإيمان واحداً ، فلولا أنهما كشىء واحد من الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحداً ، فقال سبحانه **كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم** ، وقال **يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون** ، فجعل ضدهما الكفر .

وعلى مثل هذا خبر **رسول الله**ﷺ عن الإيمان والإسلام بوصف واحدة فقال فى حديث بن عمر بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاه ، وصوم رمضان ، وحج البيت . وفى حديث **ابن عباس** عن وفد **عبد القيس أنهم** سألوه عن الإيمان فذكر هذه الأوصاف ، فدل بذلك أنه لا إيمان باطن إلا بإسلام ظاهر ، ولا إسلام علانية إلا بالإيمان سرا ، وأن الإيمان والعمل قرينان لا ينفع أحدهما بغير صاحبه ، ولا يصح أحدهما إلا بالآخر ، كما لا يصحان ولايوجدان معا إلا بنفى ضدهما وهو الكفر .

وقد اشترط الله تعالى للإيمان العمل الصالح ونفَى النفع بالإيمان إلا بوجود العمل، كما شرط للإيمان الإسلام، فقال تعالى «**إلاّ من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيأتهم حسنات**» ، والإجماع من أهل التفسير إلاّ من تاب من الشرك كقوله تعالى «**فإنْ تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم**» ، بعد قوله **وخذوهم واحصروهم**. وقال سبحانه وتعالى «**وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنازلفى إلاّ من آمن وعمل صالحا**». وقال تعالى «**الذين آمنوا وكانوا يتّقون**» ، كما قال تعالى «**الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين**» ، فاشترط للإيمان الأعمال والتقوى، كما اشترط للأعمال الصالحة الإيمان، فكما لو عمل العبد بالصالحات كلها لم تنفعه إلاّ بالإيمان، كذلك لو آمن الإيمان كله لم ينفعه إلاّ بالأعمال. وفى وصية **لقمان** لابنه: يا بنى كما لا يصلح الزرع إلاّ بالماء والتراب، فكذلك لا يصلح الإيمان إلاّ بالعمل والعلم... فأمّا تفرقة **النبى صلى الله عليه وسلم** فى حديث جبريل عليه السلام لمّا سأله ما الإيمان، فقال : أنْ تؤمن بالله وملائكته ورسله ، وبالبعث بعد الموت ، وبالحساب، وبالقدر خير وشره.. ثم قال ما الإسلام، فذكر الخصال الخمس، فإنّ ذلك تفصيل أعمال القلوب وعقودها على ما توجب هذه المعانى فيما توجب الأفعال الظاهرة أن تكون علانية، إلاّ أنّ ذلك يفرّق بين الإسلام والإيمان فى المعنى باختلافٍ وتضاد، وليس دليل أنهما مختلفان فى الحُكم إذ قد يجتمعان فى عبدٍ واحدٍ مسلم مؤمن، فيكون ما ذكره من عقود القلب وصفٌ لقلبه، وما ذكره من العلانية وصفٌ لظاهر جسمه، والدليل على ذلك أنه جعل وصف الاسمين معنىً واحداً فى حديث **ابن عمر** وفى حديث وفد **عبد القيس** الذى ذكرناه عن **ابن عباس**. وقد روى ذلك مفصّلا فى حديث **علّى** رضى الله عنه: الإيمان قول باللسان، وعقدٌ بالقلب، وعملٌ بالأركان... فأدخل أعمال الجوارح فى عقود الإيمان. وأيضا فإن الأمة مجمعة أن العبد لو آمن بجميع ماذكرناه من عقود القلب فى حديث جبريل عليه السلام من وصف الإيمان، ولم يعمل بما ذكرناه من وصف الإسلام لا يسمى مؤمنا، وأنه إنْ عمل بجميع ما وصف به الإسلام، ثم لم يعتقد ما وصفه من الإيمان لا يكون مسلما. وقد أخبر **صلىّ اللهّ عليه وسلّم** أن الأمة لا تجتمع على ضلالة، وليس فيه دليل على أن الإسلام غير الإيمان، أو أنّ المسلمين سوى المؤمنين، أو أنّ الإيمان ضد الإسلام.

والوجه الثانى من تأويل الخبر أن معنى قوله **أو مسلم** يعنى به أو مستسلم، فإذا جمع بين عقود القلب وبين أعمال الجوارح كان مسلما مؤمنا. ومن لم يقل بهذا الذى ذكرناه فقد

كفرّ أبا بكر رضى الله تعالى عنه وجهّله فى قتال أهل الردّة، وادّعى عليه أنه قتل المؤمنين، لأن القوم جاؤا بعقود الإيمان ولم يجحدوا التوحيد ولا أكثر الأعمال، وإنمّا أنكروا الزكاة، فاستحلّ قتلهم ، وواطأه الصحابة على ذلك حتى استتاب من رجع منهم. وأما الحديث الآخر الذى جاء ظاهره أن النبى صلّى الله عليه وسلم فرّق بين المؤمن والمسلم فى أنه أعطى رجلا ولم يعط الآخر، فقال له سعد يا رسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن، فقال أو مسلم، فأعاد عليه فأعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مسلم، فإنما فى هذا دليل على تفرقة الإيمان والإسلام فى التفاضل والمقامات، أى ليس هو من خصوص المؤمنين ولا أفاضلهم، فكشف مقامه الذى خفى على سعد كما كشف مقام حارثة عن حقيقة إيمانه إذ كان خاملا لا يؤبه له، فقال كيف أصبحت فنطق بوجْده عن مشاهدته، فقال عرفتَ فالزمْ، فهذا دليل لنا فى تفضيل مقام الإيمان على مقام الإسلام، وأنّ المؤمنين يتفاضلون فى الإيمان وإنْ تساووا فى أعمال الجوارح من الإسلام، وأنّ الإيمان لا حدّ له وإنْ كانت صحته بمحدود الإسلام، فأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى آمن طوعا على المُكْرَه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يعطى مِنْ المُؤلفّة الرؤساء، ومَنْ لا يُؤمِنُ عاديتَه وجَمْعَه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحريضَه المشركين، كما أكرم الرجل بعد أنْ تكلم فيه. فقيل له فى ذلك فقال هذا أحمق مطاع، أو مَنْ يَكثُر عشيرته واتباعه فيكون ظهيراً على المؤمنين، أو من فيه غنىً للمسلمين ومنفعةً وعزةً للمسلمين، فأمّا الأتباع والسَفَلة من المُؤلفّة فلم يكن يؤثرهم بالعطاء، بل كان يؤثر المؤمنين ويقدّمهم على أراذل المؤلفة وضعفائهم، كما فعل بالقسم الذى قسمه بين المؤمنين فأعطاهم إلاّ رجلاً من الغُزاة له سجادة محلوق الرأس، فإنه لم يعطه، فقال إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى، واللهِ ما عدل، فقال صلى الله عليه وسلم إنْ لم أعدل فمَن يعدل. وكان ذلك أول قرن نبغ من الخوارج. أفلا تراه لم يعطِ هذا شيأً ولم يَستَمِلْه لأنه لم يكن من خصوص المؤمنين ولا ممن يُتَقَى بأسه أو يظهر فى الإسلام غناه فيُتألف بالعطاء. وهذا مثل قول فرعون حين ألجمه الله الغرق فاضطره إلى الإسلام بقوله آمنتُ أنّه لا إله إلاّ الذى آمنتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين - أجمع أهل التفسير أن معناه من المستسلمين. فإنْ قيل فقد روى فى آخر هذا الخبر فى بعض الروايات ما يدل على ضد هذا التأويل وأن الرجل كان فاضلا لا أنه كان مستسلما، وهو أن فى الحديث أنْ النبى صلى الله عليه وسلم قال إنى لأعطِى قوما وأمنع آخرين، أكِلهم إلى ما جعل الله تعالى فى قلوبهم

من الإيمان، منهم فلان... قيل إنّ هذا كلام مستأنَف من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أفاده القائل، لأنه بُعِثَ بجوامع الكلم، وكان يُسئل عن الشيء فيخبر به ويزيد عليه للبيان والهداية الذى أُعطِى، فكأنه أراد أنْ يخبر بتنويع عطائه وبضروب المُعطين من الناس، هذا للحاجة، وهذا للفضل ، وهذا للتألف، لأن الذى منعه أفضل من الذى أعطاه، إذ لو كان الأمر كما قال هذاالقائل لكان الإسلام أفضل من الإيمان، ولكان المسلمون أفضل من المؤمنين، ولم يقل بهذا أحد من العلماء، إلاّ أنّ الإيمان خاصٌ فيه التفاوت والمقامات، فهو يشتمل على الإسلام، والإسلام داخل فيه، والمؤمنون هم خصوص المسلمين، منهم المقرّبون والصدّيقون والشهداء ، والإسلام عام محدود يوصف به عموم المؤمنين،ويدخل فيه أهل الكبائر والإجرام، ولا يخرج منه مَن فارق الكفر ووقع عليه اسم الإيمان، كما قال تعالى «**فمن افترى على اللّه الكذب**» ، وأخبر عنه **بالفسوق** ، «**ومَن أظلم ممن افترى على اللّه الكذب وهو يُدعى إلى الإسلام، واللّه لا يهدى القوم الظالمين**» ، - فعلى إجماعهم أن الإيمان أعلن إسقاط وَهْم مَنْ تَوهّم أن الرجل كان أفضل، كيف وقد روينا تخصيص الإيمان عن النبى صلى اللّه عليه وسلم نصاً أنه سُئل أى الأعمال أفضل ، قال الإسلام، قيل فأى الإسلام أفضل، قال الإيمان، فجعل الإيمان مقاما فى الإسلام. ففى هذا الحديث أيضا تخصيص للإيمان على الإسلام لا تفرقة بينهما، بمعنى قوله فى وصف الرجل «**أو مسلم**»، فدلّ على بطلان ما تأوّله القائل لأن هذه اللفظة بالِف الاستفهام لا تستعمل فى عُرف الكلام إلاّ فى الوصف الأنقص والحال الأدنى، فافهم.

وأما قوله تعالى **قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا**، فإنّ هذا أيضا من هذا النوع، معناه قولوا استسلمنا حَذَرَ القتل. وهؤلاء ضعفاء المؤلفة وأراذلهم كانوا ينقمون على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إيثاره وتقديمه المؤمنين بالعطاء عليهم، وإرجاءه إياهم، فقالوا لِمَ لا يعطينا كما يعطى المؤمنين فإنّا مؤمنون كَهُمْ، فأخبر اللّه تعالى بذلك عنهم وأكْذَبَهُم فى دعواهم. وهم الذين قصّ اللّه تعالى أخبارهم فى قوله تعالى «**ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإنْ أعطوا منها رضوا، وإنْ لم يعطوا منها إذا هم يسخطون**» ، ففى هذه الآية دليل على أن النبى صلى اللّه عليه وسلم لم يكن يعطى هذا الضرب من المؤلفة. وليس فى الآية تفرقة بين الإيمان والإسلام بدليل قوله تعالى فى الآية التى بعدها «**يمنّون عليك أنْ أسلموا، قل لا تمنّوا علىّ إسلامكم، بل اللّه يَمُنّ عليكم أنْ**

هداكم للإيمان» ، فسمّى إسلامهم إيمانا لأنه عطف ببعض الكلام على بعض وردّ أوله إلى آخره، وإنما أسْقطَ المنّة به على رسوله وأثبت المنّ عليهم بنفسه، وعطف بآخرِ الاسم على أوله، وغاير بين اللفظين لاتساع لسان العرب، وليفيدنا أفضل بيان ، **وأنّ الإسلام والإيمان اسمان بمعنى واحد** ، كما قال تعالى «**هل من خالق غير الله يرزقكم** » ، ولم يقل يخلقكم، ليبين أنّ الرازق هو الخالق ، وليفيد وصفاً ثانياً وَصَف به نفسه تعالى. فأمّا ما روى عن **أبى جعفر محمد بن علىّ** الإيمان مقصور فى الإسلام، فمعناه هو باطنه ، قال وأدار دائرة كبيرة فقال هذا الإسلام، ثم أدار فى وسطها دارة صغيرة فقال وهذا الإيمان فى الإسلام، فإذا فعل وفعل خرج من الإيمان وصار فى الإسلام، يريد أنه خرج من حقيقة الإيمان وكماله ، ولم يكن من الموصوفين الممدوحين من المؤمنين ، لأنه خرج من الاسم والمعنى إلى الدارة الصغيرة غير خارجة من الدارة الكبيرة التى أدارها حولها فجعلها فيها وضرب المثل بها، لكنها خالصُها أو لُبُّها ومخصوصةٌ فيها، ولو أراد أنهما منفصلان لجعلهما دائرتين منفردتين ولم يجعل إحداهما جوف الأخرى وكذلك جاء الخبر لا يزني الزانى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر وهو مؤمن ، معناه كامل الإيمان أو مؤمن حقا ، لأن حقيقة الإيمان وكماله بالخوف والورع، إذ الأمة مجمعة أن أهل الكبائر ليسوا بكافرين، وإذا فسق بالزنا وشرب الخمر خرج من حقيقة الإيمان وهو الخوف والورع، ولم يخرج من اسمه ومعناه وهو التصديق والتزام الشريعة، وفيه معنى لطيف كأنه يرتفع عنه إيمان الحياء لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال الحياء من الإيمان، والمستحيى لا يكشف عورته على حرام. ويبقى إيمان الإسلام والتوحيد وإيجاب الأحكام. وقد روينا عن **الحسن** بيان ذلك أنه قال الإيمان حقيقة الإسلام. وقيل **لحذيفة** مَن المنافق؟ فقال الذى يتكلم بالإسلام ولا يعمل به، فسمّى الإيمان إسلاماً وقرَن القول بالعمل. وقال **الثورى** رحمه الله الناس عندنا مؤمنون مسلمون فى حدودهم وفرائضهم، وفى النكاح وفى المواريث وفى الصلاة خلفهم والصلاة عليهم، لا يُحاسب الأحياء ولا يقضى على الأموات ، ونَكِلُ ما لم نعلم من سرائرهم إلى الله تعالى، ونسمع بالتشديد فنخافه، ونسمع اللين فنرجوه لأهل القِبْلة، ونتهم رأينا لرأى السلف قبلنا، وما ذكرناه من **أن الإسلام والإيمان قرينان** لا يفترقان فهذا مذهب فقهاء أصحاب الحديث وطريقة أئمة السلف رضى الله عنهم أجمعين.

باب ذكر تفضيل بيان ما نقل عن المُحدّثين من التفرقة بينهما وما جاء فى معناه

فأما ما حكى عن **بعض أصحاب الحديث** أنه فرّق بين الإيمان والإسلام، فقال **الزهرى** الإسلام الكلمة، والإيمان العمل ؛ وقال **عبد الرحمن بن مهدى** وقد سئل عن الإيمان والإسلام فقال هما شيآن ، وقول **حماد بن زيد** الإسلام عام والإيمان خاص، فإنّ قول هؤلاء على جملة قولنا، وهو دليل له وشاهد عليه، وأنهم لم يفرقوا بين الإيمان والإسلام تفرقة اختلاف ولا تضاد، ولم يريدوا أنّ أحدهما يوجد ويصح بعدم الآخر ليواطؤا **مذهب المرجئة**، لأنهم أبعد شيء منهم، إذ هم أصحاب أثر وتوقيف، وإنما فرقوا بينهما تفريق تفاوت وتخصيص، أى أنّ الإيمان أخص وأعلى لأن الزيادة والنقصان فيه ، والفضائل والمقامات عنه، والاستثناء واجب فيه ، وأن الإسلام عام لا يخرج منه إلا الكافرون إذ ليس وراءه شيء. وعند، جماعة من العلماء أن الاستثناء غير واجب فى الإسلام لأنه محدود معلوم. فهذا كان قصد من فرّق بين الإسلام والإيمان، وهى طريقة بعض السلف وعبارة القدماء، وهو على نحو ما فصلناه وبمعنى ما بيناه، وإنْ كنا نحن أظهر تفصيلاً وأبيْن ترتيبا. وهذا مثل الخبر الذى روى أن النبى صلى اللّه عله وسلم سُئل أى الإيمان أفضل، قال الإسلام، قيل فأى الإسلام خير، قال الإيمان، فلم يفرق بينهما، ولكنه خصّص فجعل الإيمان حقيقة الإسلام وخالصه، لأنه أخبر أنه منه، فهذا من قوله من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، أى من تحققه بالإسلام، ومِن أعلى إسلامه هذا الوصف، وهذا هو نعت المؤمن الموقن الزاهد، وهذا يشبه ما مثّله **أبو جعفر محمد بن علىّ** فى أنه أدار دائرة كبيرة وأدار فيها دارةً صغيرة تخصيصاً. وجميع ما شرحناه وذكرناه عن السلف يُبطل قول **المرجئة والكرامية والأباضية**، ويدحض دعواهم فى أن الإيمان قول أو معرفة وعقد بلا عمل. وهو أيضا ردٌّ على **المعتزلة** القائلين بالمنزلة بين المنزلتين، الذين يقولون مؤمن وفاسق وكافر، فلا يجعلون الفاسق مؤمنا. وهو ردٌّ على **الحشوية والجرمية والقطعية والحرورية**، أصناف من الخوارج، يقولون من أتى كبيرة خرج من الإيمان، وأن أهل الكبائر كفار يحل قتلهم. ويقولون إن أهل البغى من الأئمة كفرة يجب على الرعية قتالهم، ومنهم من يقول إنّ من بَغىَ على الإمام فقد كفر بخلاف قول اللّه "تعالى **وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر اللّه**"، فأمَرَ بقتال أهل البغى بتسميته إياهم مؤمنين ولم يجعل لهم منزلة ثالثة. وقد ابتلينا بطائفتين مبتدعتين متضادتين في المقالة : **المرجئة والمعتزلة**. قال المرجئة إنّ الموحدين لا يدخلون النار وإنْ عملوا بالكبائر والفسوق

كله، لأن ذلك لا ينقص إيمانهم. وقالت المعتزلة إنّ الفاسق ليس بمؤمن، وإنْ مات على صغيرة من الصغائر من غير توبة دخل النار لا محالة ولم يخرج منها، خالداً مع الكفار. والصواب من ذلك أن الفاسق مؤمن لا يخرجه فسقه من اسم الإيمان وحكمه، ولكن لا يُدخِله في المؤمنين حقاً من الصدّيقين والشهداء، وأنّ أهل الكبائر قد استوجبوا الوعيد ودخول النار، وجائز أن يعفو اللهّ تعالى عنهم بكرمه ويسمح لهم بجوده، كما روينا عن **عليّ** أنه قال : عليكم بالنمط الأوسط الذي يرجع إليه الغالي. وقد قال **صلى الله عليه وسلم** في وصف علماء السنّة ومدحهم : يحمل هذا العلم من كل خلف عدُوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين... **فالغالون** هم المجاوزون للسنن والآثار، **والمبطلون** هم المدّعون بالرأي والقياس، **والجاهلون** هم الشاطحون من المتصوّفة الضُلاّل. وعدول كل خلق من اتبّع سنّة صالحٍ من سلفٍ ولم يبتدع في الدين، ولا اتخذ وليجة دون طريق المؤمنين، وهم رواة الأخبار وجملة الآثار من المحدّثين وفقهاء المسلمين. ويوضح قولنا ويصححه قول اللّه تعالى **اليوم أكملت لكم دينكم**، إجماعا من المسلمين، وأنها نزلت بعد نزول الفرائض وإتمام الشرائع وفي حجة الوداع، وهي آخر حجة حجهّا رسول اللّه صلّى عليه وسلم بعد نزول فرض الحج، لأن سورة المائدة مدنية بإجماعٍ من القرّاء، وهي من آخر ما نزل من القرآن باتفاقٍ من الفقهاء، ولم يلبث رسول اللّه صلّى عليه وسلم بعد نزول هذه الآية إلا **ثلاثة أشهر وثلاثة أيام**، اتفق عليه أهل التاريخ، **لأنها** نزلت يوم **التاسع من ذي الحجة** من آخر يوم عرفة، وقُبض رسول اللّه صلّى عليه وسلم **لاثنتي عشرة خلون من ربيع الأول**، فقال اللّه تعالى بعد نزول الأحكام وإحكام الحلال والحرام **اليوم أكملت لكم دينكم** والإكمال هو إتمام الشيء الذي بعضه متعلق ببعض، فلا يقال أكمل لما كان بعضه قبل بعض، فإذا وجد جميعه قيل قد أُكمِل وتُمِم. هذا هو حقيقة هذه الكلمة، فلما كان الإيمان قد تقدّم بمكة وأنزل اللّه تعالى الفرائض والدين شيئاً بعد شيء، وكان الإكمال من الدين دلّ أن بعضه متعلق ببعض إلى أكْمِله، فصارت الأعمال متعلقة بالإيمان وهما الدين المُكَمَّل.

وقال بعض السلّف مَن لم يقل من **المرجئة** إن إبليس مؤمن لأنه قد أقرّ بالإيمان وقال به انكسر عليه مذهبه. ولعمري إن **إبليس** لعنه اللّه موّحد لّه تعالى عارفٌ به، إلاّ أنه لم يعمل بالتوحيد، ولم يطع من عرفه وآمن به فكفر. فأمّا تعلّقهم بقول اللّه تعالى **فأثابهم اللّه بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهار** فإنه شرَطَ القول للجنات، أو علّق الجنات بالقول،

فإنما ذلك إثبات منه تعالى لتحقيق القول وأنه قول إيمان ويقين، وأنهم غير متعوذين بالقول ولا متخذوه جُنّة كالمنافقين، إذ المنافقون قد قالوا كقولهم إلا أنه أخبر عن سرائرهم بصده. فقال "**هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم**، فأراد سبحانه بأن قول هؤلاء قول المؤمنين، وأن قولهم إيمان من أعمالهم لأنهم منفردون بالقول دون العمل. وفيه أيضا دليل أن القول الحق من الإيمان، وأنه يستحق عليه ثوابا لأنه من أعمال البرّ بمنزلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، **فإمّا** أنْ يكون فيه دليل أن القول هو الإيمان كله، وأن الإيمان يكون قولاً لايحتاج إلى عمل ، فهذا باطل بالأدلة التى قدمّنا ذكرها من الآى التى شرط الله تعالى فيها الأعمال، ومن قوله فى الكفّار **فإنْ تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم**. وأيضا فإن فى نفس هذه الآية بطلان دعوى المرجئة، لأنّ الله تعالى لم يقل فلم يثُبهُم الله إلاّ بماقالوا جنات، وإنما قال عزّ وجلّ **فأثابهم الله بما قالوا جنات**، فأخبر أنه أجرَهم على قولهم بالحق، كما قال **فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا**، ثم أحكم ذلك وقيّده بقوله تعالى **وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**"، ولكن هؤلاء كما قال الله تعالى **فأمّا الذين فى قلوبهم زيْغ فيتّبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله**، وكما قال **رسول الله صلّى عليه وسلم** : إذا رأيتم الذين يتبّعون ما تشابه من القرآن فهم الذين عنَى الله تعالى فاحذروهم .. وذلك أن الله تعالى قرَن الأعمال بالإيمان فى كل المواضع فلم تقف المرجئة مع شىء من هذا البيان والإحكام، فلمّا أجمل القول فى موضع واحد لِماَ ذكرناه من السبب تعلقّوا به ووقفوا معه. وقد قال **رسول الله صلى الله عليه وسلم** : صنفان لا نصيب لهما فى الإسلام ، وفى لفظ آخر لا ينالهم شفاعتى القدرية والمرجئة... وفى الحديث الغريب طائفتان لا يدخلون الجنة – من قال إن الإيمان كلام. ورواه **حُذَيْفة** فقال إنى لأعلم أهل دينيْن فى النار، قوم شرار بلا علم، وقوم فى آخر الزمان يقولون كانوا ألوفاً ضُلاّلاً، نسأل الله أن لا يصرفنا عن فهم آياته ولا يبلونا بالكِبر، وأنْ يرينا سبيل الرشد ويوفقنالاتخاذه سبيلا، وأنْ يرينا سبيل الغَىّ ويعصمنا من اتخاذه سبيلاً. كما أخبر بذلك عمّن بلاه به فقال تعالى **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وإنْ يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإنْ يروا سبيل الغَىّ يتخذوه سبيلا** الآية.

ذكر الاستثناء فى الإيمان والإشفاق من النفاق وطريقة السلف فى ذلك

فأما الاستثناء فى الإيمان فإنه سنّة ماضية وفعل الإئمة الراضية على معنى الخوف والتقصير وكراهية التزكية للنفس، لا على وجه الارتياب فى اليقين، ولا بمعنى الشكّ فى التصديق، إذ الإيمان مقامات والمؤمنون فيه درجات، ولذلك قال الله تعالى لقوم موصوفين باعيانهم **أولئك هم المؤمنون حقاً**، فهذا وصفهم بالكمال ومدحهم بخصال الأعمال، ففى دليل خطابه أن ثمّ مؤمنين غير حق. كيف وقد قال **وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون، يجادلونك فى الحق بعد ماتبيّن**. وقال سبحانه وتعالى فى وصف آخرين **يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون**. وقال فى نعت الصادقين **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون**. وقال فى مثل وصفهم **ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة** الآية، فذكر عشرين وصفا إلى قوله **أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**، منها الإيثار بالمال على حبه، والوفاء بالعهد، والصبر فى الأمراض والجوع والشدائد، فبعد ذلك شهد لهم بالصدق والتقوى. وقال فى وصف المحبوبين من الموقنين **إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم**. وقال فى نعت عموم المؤمنين **وإنْ تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسالكم أموالكم، إنْ يسألكُموها فيُحفكُم تبخلوا ويُخرج أضغانكم**. فشتّان بين من وُصِف بالمجاهدة والصدق وبين من نُعِت بالخُلف وعُرِّض للمَقت، وبين من وُصِفِ بالحق وبين من يجادل فى الحق، وبين من قُبِلَ منه المال والنَفْس وبين من رُدّ عليه المال ولم يساله لِمَا عَلِمَ منه من البخل والضغَن. واسم الإيمان يجمعهم ومعناه يجتمع عليهم، إلاّ أن مقامات الإيمان ترفع بعضهم على بعض وتفاوِت بين بعضهم وبعض. كما قال تعالى **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**. وكقوله **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلاً وعد الله الحسنى**، يعنى الجنة على تفاوت الدرجات فيها، فجمع بينهم فى الدار كما جمع بينهم فى اسم الإيمان، ورفعهم فى الدرجات علواً فى المقامات، كما قال تعالى **هم درجات عند الله، والله بصير بما يعملون**.

وقد روينا فى خبر: الإيمان عُريان، ولباسه التقوى وحِلْيته الورع، وثمرته العلم. ففيه دليل

أن مَنْ لا تقوى له فلا لِبْس لإيمانه، ومن لا ورَع له فلا زينة لإيمانه، ومن لا علم له فلا ثمرة لإيمانه، فإنْ اتفق فاسق ظالم جاهل كان بالمنافقين أشبه منه بالمؤمنين، وكان إيمانه إلى النفاق أقرب، ويقينه إلى الشك أميل، ولم يخرجه من اسم الإيمان إلاّ أنّ إيمانه، عريان لا لبسة له، معطلٌ لا كسْب له ، كما قال **أو كَسَبَتْ فى إيمانها خيراً** .

والنفاق مقامات، قيل سبعون باباً **والشرك** مثل ذلك فيها طبقات. وروى عن **النبى صلى الله عليه وسلم** : أربع من كن فيه، فهو منافق خالص، وإنْ صام وصلّى وزعم أنه مؤمن. من إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذاائتمن خان، وإذا خاصم فجَر... وفى بعض هذا الحديث وإذا عاهد غدَر، فصارت خمسا، فإنْ كانت فيه واحدة منهن ففيه شعبة من نفاقٍ حتى يدعها... وفى حديث **أبى سعيد الخدرى وأبى كبشة الأنمارى**: القلوب أربعة، قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب مُصَفَّح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كالبقلة يمدها الماء العذب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحة يمدها القيح والصديد، فأى المَدتَّين غلبت عليه حُكِمَ له بها. وفى لفظ آخر أيهما غلبت عليه ذهب به.

وفى الخبر: الإيمان بضعٌ وسبعون شُعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلاّ اللّه، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق... ففى تبعيض أخلاق الإيمان، وفى وجود دقائق الشِرْك وشُعَب النفاق، ما يوجب الاستثناء فى كمال الإيمان، لجواز اجتماع الإيمان والنفاق فى القلب، ولوجود شُعَب النفاق، وعدم بعض شُعَب الإيمان من القلب. كيف وقد جاء فى الخبر :أكثر منافقى أمتى قُرّاؤها... والحديث الآخر:-الشرك أخفَى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا... وقال **حذيفة** كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول اللّه صلّى عليه وسلم يصير بها منافقا إلى أن يموت. إنى لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات. وفى حديث **علّى** كرم اللّه وجهه أن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء، فإذا عمل العبد الصالحات نما وزاد حتى يبيّض القلب كله . وإنّ النفاق ليبدو نُكتةً سوداء، فإذا انتُهكت الحرمات نمت وزادت حتى يسوّد القلب فيُطبَع عليه، فذلك الختم. ثم قال **كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون**. فهذا كله موجب للإستثناء فى الإيمان خشية خفايا الشرك ووجود دقائق النفاق، وخوفاً من الدعوى للحقيقة والكمال، لأن من قال إنى مؤمنٌ حقاً فقد زكّى نفسه وعصَى ربه، لأنّ اللّه تعالى نهى عن التزكية للنفس، ولأن المُزكّى يعرض نفسه للكذب فى قوله تعالى فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم

بمن اتقى، وبقوله **ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم، بل الله يزكّى من يشاء**، ثم قال تعالى **انظر كيف يفترون على الله الكذب**. وقد قال إبراهيم عليه السلام فى تفسير أحد الوجهين من قوله تعالى **ولا أخاف ما تشركون به إلاّ أنْ يشاء ربى شيئاً**، أو مثله، قال شعيب **وما يكون لنا أن نعود فيها**، يعنى ملة الكفر، **إلاّ أن يشاء الله ربنا**، ثم علّلا جميعا بسعة العلم وسبق المشيئة به ، فلم يأمنا أن يكونا فى سعة علم الله عز وجل وفى خفّى مشيئته، وهذا هو خوف المكر. وحقيقة المكر معنيان، أحدهما أن يُظهر شيأ ويخفى ضده، والثانى أن يكشف ما كان ستَرَه ويُفشى ماكان أسرّه بعد الطمانينة والعزة، والأنبياء مع فضلهم ومكانهم يُستثنون فى الكفر خيفة المكر، ولا يُستثنى الضعيف الجاهل فى الإيمان ويفتر بظاهر أمره، بل ينبغى أن يُستثنى فى الإسلام أيضا وفى جميع أعمال البّر، لأن القبول غير العمل، والسابقة غير ماظهر من المعاملة، ولا ينبغى أن يدع الاستثناء فى شىء من الأحوال.

وقال بعض العلماء فى معنى قوله تعالى **وجاءت سكرة الموت بالحق**، قال بالسابقة. وقال بعض السلف إنما يوزن من الأعمال خواتيمها. وكان **أبو الدرداء** يحلف بالله عز وجل ما أحد أمِن أنْ يُسلَب إيمانه إلا سُلِبه. ويقال من الذنوب ذنوب تؤخّر عقوبتها إلى سوء الخاتمة، وهذا من أخوف ماخافه العاملون مع قوله تعالى **ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون**، وقيل من الذنوب ذنوب لا عقوبة لها إلاّ سلب التوحيد فى آخر نَفَسَ، نعوذ بالله تعالى من ذلك. وقيل هذا يكون عقوبة الدعوى للولايةوالكرامات للافتراء على الله تعالى. وكان **سهل** رحمه الله تعالى يقول من علامة الأولياء أنهم يُستثنون فى كل شىء، وقال مَن قال افعل كذا ولم يقل إن شاء الله تعالى سُئل عن هذا القول يوم القيامة، فإن شاء عذّبه ، وإن شاء غفر له. وقد نهى الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يقول شيأ حتى يستَثنى، وأمره بالاستثناء إذا نسى فقال تعالى **ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلاّ أنْ يشاء الله**، ثم قال **واذكر ربك إذا نسيت**، أى الاستثناء، أى فاستثن إذا ذكرت، فتأدّب صلّى الله عليه وسلم بذلك أحسن الأدب، فكان يستثنى فى الشىء يقع لا محالة، فروى أنه دخل المقابر فقال السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنّا إنْ شاء الله بكم لاحقون. وقال سبحانه معلماً لعباده الاستثناء، ورادهم إليه بمشيئته وهو أصدق القائلين وأعلم العالمين **لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين**. والاستثناء أصلٌ يُرَدّ إليه مَن عرفه ولم ينكر الاستثناء. والأصل هو أن

يزيد وينقص، فأمّا زيادته بنصّ الكتاب من قوله تعالى **ويزيد الله الذين اهتدوا هدى**، ومن قوله تعالى **فزادهم إيماناً**، ومايزيد فهو ينقص، لأن معناه موجود فى الكتاب بدليل الخطاب من قوله تعالى **ولا يزيد الظالمين إلا خسارا**، وقوله **وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفرا**. وفى قوله تعالى **وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجْسا إلى رجسهم**، فما يزيد الظالمين إلاّ خسارا ينقصهم رجحانا وربحا، وما يزيدهم إلاّ كفرا ينقصهم إيمانا، وما يكون عليهم عمًى ينقصهم بصيرة، ومايكون لهم رجسا يكون لهم من الطهارة نقصا من قِبَل أن مزيد الشر نقصان الخير، كما أن مزيد الخير نقصان الشر، فإذا ثبت أنّ الإيمان يزيد بالصالحات وينقص بالسيئات وجب الاستثناء فيه، لأن الصالحات درجات يعلو فيها المؤمنون بحُسن الولايات والمجاهدات. قال الله تعالى فى المُجمل من الخطاب **وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**، **وقال والله ولى المؤمنين**، وقال فى المفسّر **ولكل درجات مماعملوا**، وقال فى مثله **وهو وليّهم بما كانوا يعملون**، وقال **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله**، إلى قوله **وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما**.

وروينا فى حديث **واثلة بن الأسقع** الإيمان يزيد وينقص. وروى ذلك عن جماعة من الصحابة ومَن لا يُحصَى من التابعين. وقيل **لأحمد بن حنبل** رضى الله عنهما مامعنى **الاستثناء فى الإيمان**؟ قال أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ قيل نعم. قال فالتصديق بالقول، والاستثناء بالعمل. وقال بعض العلماء أقرب الناس من النفاق من يرى أنه منه برىء. وقال مرة آمنهم له. وقال **عمر مولًى** عفرة أقرب الناس إلى النفاق الذى إذا زُكّى بما ليس فيه ارتاح لذلك قلبه، وأبعد الناس منه من يتخوّف أنه لا يُنجيه حقيقة ماهو فيه. وقال **بشر بن الحارث** سكون القلب إلى قبول المدح أضر عليه من المعاصى . وكان **سهل** يقول غفلة العالم السكون إلى الشىء، وغفلة الجاهل الافتخار بالشىء. والسكون عندهم من الدعوى، والدعوى من المعاصى . وقال **حذيفة** اليوم المنافقون أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. كانوا إذذاك يخفونه وهم اليوم يُظهرونه. وقيل **للحسن** إن قوما يقولون لا نفاق اليوم، فقال يا ابن أخى لو هلك المنافقون لاستوحشتم فى الطرقات. وعنه وعن غيره لو نبت للمنافقين أذناب ما قَدِرْنا أن نطأ على الأرض. وسمع **ابن عمر** رجلا يطعن على الحجّاج، فقال أرأيت لو كان حاضراً بين يديك، أكنت تتكلم فيه بما تكلمت الآن؟ قال لا. قال كنا نعُدّ هذا نفاقاً على

عهد رسول اللّه صلّى عليه وسلم. وقال **رسول اللّه صلّى عليه وسلم:** من كان ذا لسانين في الدنيا جُعِلَ له لسانان من نار في الآخرة.. وفي خبر آخر: شرّ الناس ذو الوجهين، يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه.. وقيل **للحسن** إن قوما يقولون لا نخاف النفاق، فقال واللّه لأنْ أكون أعلم أني بريء من النفاق أحبّ إليّ من تلاع الأرض ذهباً.

وقال **الحسن** إنّ من النفاق اختلاف اللسان والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج. وقال رجل **لحذيفة** إني أخاف أن أكون منافقا، فقال لوكنت منافقا ما خِفْتَ أن تكون منافقاً. إنّ المنافق قدأ أمِنَ النفاق لأن النفاق على ضربين: نفاق ينقل عن الملّة وهو الشكّ في دين اللّه تعالى والردّ لشرع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ونفاق لا ينقل عن الملة ولا يُخرِج عن الإسلام، ولكنه ينُقص الإيمان، ويُذهِب حقيقته، ويطُفيء أنواره، ويحرم مزيده، ويُحبط الأعمال ويوجب المقَت والإعراض، وهو الرياء والمداهنة، والتصنّع للخلق والتزين بالحق، وائتلاف الألسنة واختلاف القلوب، وتفاوت القول والعمل، ومخالفة الأمر إلى ما يُنْهَى عنه. واختلاف السرّ والعلانية، وزيادة الظواهر على السرائر. وهذا المعنى من النفاق الذى خافه السلف وكانوا منه على إشفاق. وكان **سهل** يقول المرائى حقا الذى يُحسن ظاهره حتى لا تُنكر العامة والعلماء من ظاهره شيأ وباطنه خراب، وقد كان **الحسن** وأصحابه يسمّون **أهل البدع** منافقين. وكان **ابن سيرين** وأصحابه يسمونهم **خوارج**. وقال **ابن أبى مليكة** أدركت ثلاثين ومائة، وفي راوية خمسمائة، من أصحاب النبى صلى اللّه عليه وسلم، كلهم يخاف النفاق على نفسه. وقال مرة مامنهم أحد يقول إنّا على إيمان جبريل وميكائيل عليهما السلام .

وقد روينا عن **عليّ وأبى سعيد** قالا الإرجاء بدعة. وقال **أبو أيوب** أنا أكبر من الإرجاء، وأول من أحدث الإرجاء رجل من **أهل المدينة** ذكره. وقال **قتادة** لعن اللّه دينا أنا أكبر منه،وإنما ظهر الإرجاء بعد هزيمة **ابن الأشعث**، يعنى فى ولاية الحجّاج . وقال **سفيان الثورى** من قال أنا مؤمن عند اللّه فهو من الكذابين، ومن قال أنا مؤمن حقا فهو بدعة . قيل فما يقول ؟ قال **قولوا آمنا باللّه، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم** الآية، فقيل **للحسن** أمؤمن أنت ؟ قال إن شاء اللّه . فقيل تستثنى يا أبا سعيد فى الإيمان؟ فقال أخاف أن أقول نعم فيقول اللّه تعالى كذبت ياحسن، فيحق عليّ الكلمة. وكان يقول ما يؤمنني أن يكون اللّه عز وجل قد اطّلع عليّ فى بعض مايكره فمقتنى وقال اذهب لا قبلتُ لك عملا أبدا،

فأنا أعمل فى غير معمل . وكان جماعة من أهل العلم يرون السؤال عن قوله أمؤمن أنت ، بدعة، ويقول بعضهم إذا قيل لك أمؤمن أنت، فقل آمنت بالله وكتبه ورسله. وقال **إبراهيم** إذا قيل لك أمؤمن أنت، فقل ماأشك فى الإيمان، وسؤالك إياى بدعة. وروينا عن **الثورى** عن **الحسن بن عبيد الله** عن **إبراهيم النخعى**: إذا سُئلت أمؤمن أنت، فقل لا إله إلا الله . وعن **منصور** عن **إبراهيم** قال سئل **علقمة** أمؤمن أنت ،فقال أرجو ذاك إن شاء الله . وكان **الثورى** يقول نحن مؤمنون بالله وملائكته ورسله، وماندرى مانحن عند الله. وقال بعض العلماء أنا مؤمن بالإيمان غير شاكّ فيه، ولا أدرى أنا ممن قال الله سبحانه **أولئك هم المؤمنون حقا** أم لا. وقال بعض العارفين لو عُرِضت علىّ الشهادة عند باب الدار، والموت، على التوحيد عند باب الحجرة، لاخترت الموت على الشهادة .قيل ولِمَ، قال لأنى لا أدرى مايعرض لقلبى من التغير عن التوحيد من باب الحجرة إلى باب الدار . وقال **أبو سليمان الدارانى** سمعت فلانا، يعنى بعض الأمراء، يتكلم على المنبر بكلام أردت ان أقوم فأنكر عليه، فخشيت أن يأمر بقتلى، فلم يكن بى أن أموت، ولكن خشيت أن يعرض لقلبى التزّين للخلْق بأنى أمُرت بالمعروف على الإمام وقُتلت فى الله عز وجل عند خروج روحى، فكففت عن ذلك. وقال بعض العارفين لو عرفت أحدا على التوحيد خمسين سنة، ثم حالت بينى وبينه سارية، ثم مات، لم أحكم أنه مات على التوحيد، لعلمى بسرعة تقليب القلوب. وقال **منصور بن زاذان** كان الرجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم إذا سئل قال أنا مؤمن إن شاء الله. وقال **أبو وائل** قال رجل **لابن مسعود** لقيتُ ركبا فقالوا نحن المؤمنون، فقال ألا قالوا نحن من أهل الجنة .وقال بعض أصحاب **عبد الله** لرجل: أمؤمن أنت؟ قال نعم . فذُكر ذلك **لابن مسعود**، فقال سلوه أمِنْ أهل الجنة أنت؟ فقال أرجو. فقال ألا رجيت الأولى كما رجيت الثانية. ونقش ابنٌ لبعض التابعين على خاتمه فلان "**لا يشرك بالله تعالى شيأ**"، فقال أبوه هذا أقبح من الشرك . وقال بعض السلف أقرب الناس من النفاق من يرى انه أبعدهم منه عند نفسه . وفى الخبر **أن رسول الله صلّى عليه وسلم** كان جالساً فى جماعة من أصحابه، فذكروا رجلا ومدحوه، وأحسنوا الثناء عليه، فبينا هم كذلك، إذ طلع عليه الرجل يقطر وجهه ماء من أثر الوضوء، قد علّق نعليه بيديه، وبين عينيه أثر السجود، فقالوا يارسول اللهّ هذا هو الرجل الذى وصفنا لك آنفا، فلما نظر إليه **رسول الله صلّى عليه وسلم** قال : أرى على وجهه سفعة من الشيطان- يعنى ظلمة. فجاء الرجل حتى سلّم وجلس مع القوم،

فقال له النبى صلّى الله عليه وسلم : نشدتك الله ! هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك؟ فقال اللّهم نعم. وفى الحديث: من قال إنى مؤمن فهو كافر، ومن قال إنى عالم فهو جاهل، ومن قال إنى فى الجنة فهو فى النار... وعلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصدّيق رضى اللّه تعالى دعاءً قال، قل فيه: اللّهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم... واستغفرك لما لا أعلم. وجاء فى الخبر الشرك فى أمّتى أخفىّ من دبيب النمل على الصفا... وكان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم :إنى أستغفرك لما علمت ومالم أعلم. فقيل له أتخاف يا رسول الله؟ قال ومايؤمننى والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء ... وقال الله تعالى وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ، قيل عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنات، فلما كان عند الحساب والميزان وجدوها سيئات. وقيل كانت هذه الآية مبكاة العابدين. وقيل فى معنى قوله تعالى وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، قيل صدقا لمن مات على الإيمان، عدلاً لمن مات على الشرك، كقوله تعالى إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، وقال سبحانه ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، وقال ينالهم نصيبهم من الكتاب وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص، وقال ولله عاقبة الأمور، وقال لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله، فالاستثناء فى الإيمان هو من الإيمان، والاستثناء فى كل شىء من علامة الأولياء، والإشفاق من الشرك والنفاق هو من مزيد الإيمان، لئلا يسكن العبد إلى شىء، ولا يُزكّى نفسه بشىء. وقال سَرِّى السقطى لو أن رجلا دخل إلى بستان فيه من جميع الأشجار، عليها من جميع الأطيار، فخاطبه كل طير منها بلغة، فقال السلام عليك ياولىّ الله، فسكنت نفسه إلى ذلك، كان أسيراً فى أيديها.

الفصل الخامس والثلاثون

فى فضائل أهل السنة والطريقة وطرق السلف من الائمة

السنّة اسم من أسماء الطريق، وهو اسم للطريق الأقوم. يقال طريق وطريقة، وسُنن وسُنّة، وحجة ومحجة، فمن فضائل السنّة وطريق أهلها التقلل من الدنيا فى كل شىء، والقناعة من الله تعالى بأدنى شىء، والتواضع لله بكل شىء. وفى الخبر فضل العبادة التواضع. وروينا عن رسول الله صلّى عليه وسلم: أربع لا يوجدن إلا بعجب: التواضع وهو أوّل العبادة، والصمت، وذكر الله تعالى، وقلة الشىء... واعلم أن التواضع يظهر بمعان خمسة: